إلى أن نلتقي

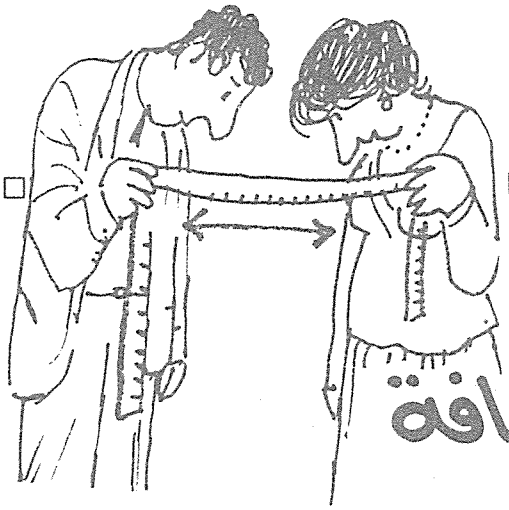

تلك المسافة

يقول لك العقلاء من الناس : هناك مسافة ما ، يجب أن تبقى بينك وبين الآخر ، مهما تكن علاقتك به ! ويضيف الساخرون منهم : إن سر المأساة في العلاقة الزوجية هو عجز الزوجين عن الاحتفاظ بمثل هذه المسافة بينهما ، في علاقة تقوم في أساسها على إلغاء المسافات بين رجل وامرأة .

ثم يفيض الجميع في الحديث عن معنى « المسافة » وحجمها ، فقد تعني أن تعرف كيف تحتفظ بالقليل أو الكثير من أسرارك ! وهي تتحقق من خلال الصمت البليغ ، كما تتحقق من خلال الكلمات المحسوبة ، وهي تقوم من خلال الإمعان في العزلة ، أو الإمعان في الظهور . وفي كلمة هي يمكن أن تتخفى في أي شيء عدا التلقائية والصدق !!

ويقول لك الحكماء من الناس : ليست المشكلة في تحديد المسافة ، بل في توقيتها ، فحاجة الإنسان إلى الاقتراب من الآخر في وقت ، لاتقل عن حاجته إلى وجود مسافة بينهما في وقت آخر !

وإذا كان الاقتراب من الآخر بأعلى درجة ممكنة من الصدق شرطا ضروريا لخبرة المشاركة في الشعور والفكر ، ولإمكانية معرفة الإنسان لنفسه أو لغيره ، فإن العزلة أيضا من خلال مسافات تطول أو تقصر أمر لاغنى عنه لتمثل الخبرة ، وللإبداع الفردي ، ولحسن الإصغاء لصوت الضمير الخاص ، ولاتخاذ القرار !

فالمشكلة الجوهرية إذن هي في تحقيق توازن حساس بين حاجة الإنسان إلى وجود المسافة أو إلغائها بين أطراف مختلفة ، وبتوازن عادل !!

ويقول لك الصعاليك من الناس ، وهم في الغالب أعمق حكمة لأنهم أكثر جنونا : عن أي مسافة تتحدثون أيها السادة ؟!

فالمسافات التي يضعها الناس بقصد كلها زائفة ، ولا يخدعون بها سوى أنفسهم ، ويكتشف زيفها الأطفال وذوو البصائر من الكبار ، ومهمتنا نحن الصعاليك أن نشبعها سخرية ، وتلك هي رسالة الصعلوك الأبدية !

كيف يصل بنا السخف أن نصطنع مسافات وهمية ، بينما هناك مسافات حقيقية ، تفصل بين البشر ، لا سبيل إلى اجتيازها ، وهي تصنع ما يمكن أن نسميه سوء التفاهم الأبدي !؟

تلك هي المسافة بين الأكثر ذكاء والأقل ذكاء ، بين البطيء الإحساس وبين من يشعر بنبضة الفكرة في طرفة عين حساسة ، بين من يعرف الكثير ومن لايملك حتى أدوات المعرفة ، بين أصحاب التواريخ المختلفة والثقافات المختلفة والمصالح المختلفة ، حيث يصبح الحديث عن الرؤية الموضوعية للأشخاص ، أو لما يتعلق بهم ، نوعا من الوهم أو الترف ، ويصبح الجهاد من أجل مثل هذه الرؤية هو الجهاد الأكبر في حياتنا .

هكذا يبدأ الحديث فقط عن المسافة ، ويمكن أن ينتهي بهذا السؤال : فل لي : ما المسافة التي تفكر بها أقل لك من أنت؟!

وإلى أن نلتقي . □

أبو المعاطي أبو النجا